المقتطف

الجزء الخامس من المجلد الثاني والثلاثين

١ مايو (ايار) سنة ١٩٠٧ — الموافق ١٨ ربيع اول سنة ١٣٢٥

الفلسفة العملية

الاستاذ وليم جمس الاميركي من اكبر فلاسفة العصر وقد قام الآن يخطب في موضوع سماه البرغمتزم Pragmatism اي الفلسفة العملية كأنه يقول ان ما كان من الفلسفة عمليًّا فهو الفلسفة الحقيقية وما سواه اوهام ومخلص خطبهُ مقتطفين منها ما يسهل تناولهُ على جمهور القراء

ابتدأ الخطبة الاولى بنقرة للستر تشرتن قال فيها "انا احسب ان اهم شيء لقائد الجيش اذا وقف امام عدوهِ ان يعرف عدد جيش العدو ولكن هنالك ما هو اهم من ذلك وهو ان يعرف ما في فلسفة العدو" اي ان يعرف كيف ينظر عدوهُ الى الحياة والمعاد

ثم قال الخطيب ان المواضيع الفلسفية غامضة عويصة ولكن الناس يميلون الى الخوض فيها. وتاريخ الفلسفة مؤلف اكثرهُ من مناقضات الفلاسفة المبنيَّة على اختلاف امزجتهم. وكثيرًا ما يحاول الفيلسوف او المشتغل بالفلسفة ان يخفي تأثير مزاجهِ في اقوالهِ وآرائهِ ولكن المزاج لا يُغلَب بل يحرف الادلة على مقتضاهُ وهذا هو هوى النفس الذي يستسلم لهُ المرءُ وهو غافلٌ عنهُ فيعتقد ان الكون جارٍ حسب هواهُ وهو على هدى وكل الذين يخالفونهُ على ضلال

وهذا الحكم خاص بكبار الفلاسفة الذين لهم في الفلسفة مذاهب معلومة مثل افلاطون ولوك وهيجل وسبنسر اما جمهور الباحثين في الفلسفة فليس لهم مزاج فلسفي معلوم بل آراؤهم ومعتقداتهم الفلسفية خليط من آراء غيرهم ومعتقدات غيرهم ولما يعرفون ما يفضلونهُ على غيره من هذه الآراء والمعتقدات وكثيرًا ما ينزعون عن رأي الى ضده على اسهل سبيل كأن الآراء من الازياء التي تتغير بتغير الزمان والمكان

والناس على هذا النمط من اختلاف الامزجة في كل المطالب ففي السياسة ترى المستبدَّ الذي لا يحتمل تغيير السلطة والفوضوي الذي خلع كل سلطة. وفي الانشاء ترى المقلد الذي لا يحيد عما كان عليهِ السلف والمجتهد الذي يسير على خطة يخطها لنفسهِ. وفي الاخلاق

ترى من يتتبع القواعد الموضوعة لذلك ومن يجاري الزمان ولا يتبع الاَّ ما يرشده اليه عقله

والفلاسفة منقسمون الى فريقين كبيرين اهل النظر واهل العمل فاهل النظر هم الذين يبنون احكامهم على المبادىء النظرية المجرَّدة واهل العمل هم الذين يبنون احكامهم على الحوادث الفعلية · وما من احد يستطيع ان يعيش ساعة من غير الاعتماد على المبادىء النظرية والحوادث الفعلية ومع ذلك ترى الناس ينقسمون هذا الانقسام في الاعتماد عليها ويختلفون ويتشاحنون بسبب ما في امزجتهم من الميل الى تفضيل هذه الجهة او تلك · وقد انقسموا الى فريقين كبيرين كالفلاسفة ولقَّبوا انفسهم القاباً مختلفة بحسبها فمن الفريق الاول او اهل النظر الفعلية والصورية والمثالية والدينية والقدرية · ومن الفريق الثاني او اهل العمل الحسيَّة والمادية والشؤسية والرانسة والجبرية . وعندي ان الفريق الاول اي اهل النظر عقولهم او امزجتهم سهلة المراس والفريق الثاني اي اهل العمل عقولهم او امزجتهم صعبة المراس وكل فريق من هذين الفريقين يحسب انهُ على هدًى وغيرهُ على ضلال · والجمهور بين بين يميلون تارة الى هؤلاء وتارة الى هؤلاء بحسب ما يستحسنونهُ او يستهجنونهُ من اعمالهم وتعاليمهم فتراهم قدرية او جبرية حسب ميلهم الى الاعتقاد بانهم احرار الارادة يفعلون ما يشاؤن او مقيدون بارادة الخالق لا يفعلون الاَّ ما قدَّر لهم فعلهُ

والظاهر ان اهل العمل من الفلاسفة ومريديهم صاروا الآن اكثر مما كانوا في العصور السالفة لكنهم اميل الى التدين مما ينتظر من الفلاسفة الماديين

وقد مضى الآن مئة وخمسون سنة والعلوم تؤول الى تكبير العالم المادي وتصغير الانسان بالنسبة اليهِ وتثبت ان الطبيعة لا تدبر مرضاة للانسان بل هي ثابتة وعلى الانسان ان يجري حسب مرضاتها وزال ما كنا نتوهمهُ من اننا احرار مطلقون في هذا الكون نفعل بهِ ما نشاء فيجري طوع ارادتنا · ولا نريد ان نكون ماديين ولكننا لا نتخلَّص من هذه الوصمة الاَّ اذا اغضينا الطرف عن كثير مما نعدُّهُ حقيقيًّا في الحياة لاننا لا نستطيع ان نتصوَّر ما هو غير مادي الاَّ بواسطة المادي حتى الخالق سبحانهُ لا يمكننا ان نتصوَّر وجودهُ الاَّ من شعورنا بمخلوقاتهِ كأن شعورنا بوجود المخلوقات المادية شرط لازم لاعتقادنا وجود الخالق غير المادي

والفلاسفة الذين حاولوا التوفيق بين مبادىء الفلسفة النظرية ومقتضيات العمل والاختبار جروا غالبًا على خطة غريبة مستهجنة مثال ذلك ان ليبنتس كان من زعماء الفلسفة النظرية ولكنهُ كان ايضاً يقف عند الحقائق الفعلية ويحاول التوفيق بين الطرفين كما استدل على رحمة الخالق من قلة عدد الهالكين حيث قال

"ان الشر يظهر كلا شيء بالنسبة الى الخير اذا اعتبرنا سعة مدينة الله . فان القدماء لم يكونوا يعرفون عظم اعمال الله فكانوا يظنون الارض وحدها مسكونة وقد ارتابوا في وجود الناس على الجهة المقابلة منها وكانوا يحسبون بقية العوالم كرات مشرقة وكواكب درية اما الآن فهما كان حد الكون الذي نسلم به فلا شبهة ان فيه كرات لا تحصى وكل منها مثل كرتنا الارضية او اكبر منها ولها حق ان تكون مسكونة بمخلوقات عاقلة مثل ارضنا ولو لم يكونوا كلهم بشرًا مثلنا . وارضنا سيار من السيارات الستة التابعة للشمس . والنجوم الثوابت شموس كلها فما اصغر ارضنا في جنب العالم المنظور لانها لا تخرج عن كونها تابعة من توابع شمس من هذه الشموس . وقد تكون هذه الشموس كلها مسكونة وسكانها من اهل السعادة . فلا شيء يوجب علينا اذًا ان نعتقد كثرة عدد الهالكين لان عددًا قليلاً منهم يكفي لاظهار الخير الذي ينتج من الشر . ثم انهُ ليس من الضروري ان تكون النجوم موجودة في كل مكان افلا يمكن ان يكون وراءها فضاء خالٍ منها وان يكون ذلك الفضاء الواسع مملوءا بالسعادة والمجد . فما هو شأن ارضنا وسكانها ألا تصير هي وهم اصغر من نقطة واحدة في هذا الكون الواسع وهي في الحقيقة ليست سوى نقطة بالنسبة الى بعد النجوم الثوابت . ولذلك فالجزء الذي نعرفهُ من العالم لا يحسب شيئًا مذكورًا بالنسبة الى العالم الذي لا نعرفهُ ولكننا مضطرون الى التسليم بوجوده وكل الشرور التي نعرفها محصورة في ارضنا هذه التي هي كلا شيء بالنسبة الى غيرها من العوالم فينتج عن ذلك ان الشر قد لا يكون شيئًا مذكورًا في جانب الخير الموجود في العالم"

وقال في مكان آخر "من العدل ما لا يقصد بهِ اصلاح المجرم ولا جعلهُ عبرةً لغيرهِ ولا التعويض على المجرَّم اليهِ بل يقصد بهِ مجرد ارضاء العدل بقصاص المجرم . ومن هذا القبيل العدل او الانتقام الذي حفظهُ الله لنفسهِ وهو يرضي المجرم ويسر كل حكيم ينظر اليهِ كما يُسَر العقل المستنير بالبناء الحسن الايقاع والبناء الحسن المتدام وعلى هذا الاساس يدوم عذاب الخطاة ولو لم يكن منهُ فائدة في ارجاع احد منهم عن خطاياهُ ويدوم ثواب الصالحين ولو لم يثبت احدًا منهم في طريق الصلاح والامران صالحان على حدٍّ سوى لان الله صنع كل شيء كاملاً وعلى تمام الانتظام"

ولا يخفى ما في هذا الاحتجاج من الضعف والظاهر ان ليبنتس لم يتصور قط الحالة التي يكون فيها من يُحكم عليهِ بالعقاب الابدي ولا خطر لهُ انهُ كما قل عدد الهالكين الذين يطرحون في جهنم ليكونوا عبرة لغيرهم تزيد سعادة الخالصين وما احتجاجهُ سوى سفسطة باردة لا تدفئها نار جهنم

ولا داعي للرجوع الى العصور الغابرة حتى نبين ضعف الفلسفة النظرية فان ادلة النظريين في عصرنا هذا ليست اقوى من ادلة اسلافهم لدى العقول التي تقف عند حد المعقول ولقد رأيت مثالاً لثورة العقول على الفلسفة النظرية في رسالة لوريمن سوفت . ابتدأها باخبار وردت في الصحف السيارة من ذلك الخبر التالي

جون كوركودان كاتب في محل تجاري طاف في المدينة من طرف الى طرف ماشياً على الثلج يفتش عن عمل يعمل به وزوجته واولاده الستة بلا طعام وقد أُمروا بالخروج من البيت الذي هم فيه لانهم لم يدفعوا اجرته فاقفر اليوم بجرعة من الحامض الكربوليك . أخرج منذ ثلاثة اسابيع من المحل الذي كان يعمل فيه لانهُ مرض فانفق في مرضهِ كل الدريهمات التي كان قد وفرها واستُخدم امس في جرف الثلج من الشوارع ولكنه كان لا يزال ضعيفاً خائر القوى فطردهُ الوكيل بعد ما اشتغل ساعة فعاد يفتش عن عمل يعمل فيه ولم يجد ورجع الى بيتهِ في المساء مصدوع القلب فوجد زوجتهُ واولادهُ بلا طعام والاعلان بالخروج من البيت ملصق على بابهِ فخرج السم في الصباح

قال المستر سوفت ان امامي الآن حوادث كثيرة مثل هذه تملأ مجلداً كبيراً وقد اقتبست منها ما تفسَّر بهِ احوال هذا الكون . فقد قال احد الفلاسفة حديثاً ان وجود الشر في العالم شرط لازم لكماله وقال آخر ان هؤلاء الملكي يزيدون كمال العالم . هذا ما يقولهُ الفلاسفة الطاعمون الكاسون الجالسون على بساط الراحة ويتخذونهُ دليلاً على القدرة والرحمة ونحن لا نعلم من امر هذا الكون غير ما نراهُ في ارضنا وقياس التمثيل يقتضي ان يكون الكون كلهُ مثل هذه الارض ولكن الظاهر ان الفلاسفة يتركون الحقائق المحسوسة التي يرونها بعيونهم ويلمسونها بايديهم ويشتغلون بفروض يفرضونها واوهام يختلقونها

وتطرَّف المستر سوفت الى اكثر من ذلك وحسب الاديان كلها من قبيل العبث . وقال الاستاذ جمس ان هذا هو معتقد كثيرين من الباحثين في الفلسفة الآن ولو لم يبلغوا في تطرفهم مبلغ المستر سوفت وكل باحث منهم يلتفت الى اساتذة الفلسفة ويطلب منهم ما يشبع نفسهُ المشوقة الى الحقائق فيأتيهِ الفلاسفة النظريون بالفلسفة الدينية والفلاسفة العمليون بالفلسفة المادية فيزن الفريقين ويجدهم ناقصين . ولا يليق بنا نحن الفلاسفة ان نستخف بحكمهِ لانهُ مثل حكم غيره من ذوي العقول الكاملة الذين سيكون لهم القول الفصل على مرّ الزمان

وهنا شرع الاستاذ جمس في شرح فلسفتهِ الجديدة التي توفّق بين الفلسفة الدينية والفلسفة المادية كما سترى في الجزء التالي